تَضَارَبَتِ الآرَاءُ حِينَ أَعْلَنَ خَادِمٌ بِنَ زَاهِرٍ اسْتِيَاءَهُ مِنْ حُسَيْنٍ صَاحِبِ (البومِ) قَائِلًا: «إِذَا أَنْ تُعْطِينَا حَقُوقَنَا كَامِلَةً،». مُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُؤَمِّنَ لُقْمَتَهُ وَلُقْمَةَ عِيَالِهِ مِنْ صَيْدِ السَّمَكِ. يَتَبَاعَدُونَ عَنْهُ كَمَنْ أَصَابَهُ الْحَرْبُ، يَحْمِلُ شِبَاكَهُ عَلَى ظَهْرِهِ مُتَظَاهِرًا بِاللَّامِبَالَةِ، كَانَتْ تَنْيَةُ تَوَدُّ أَحْتَهَا مِيرَةً زَوْجَةَ ابْنِ زَاهِرٍ، وَتَحْرِيصٌ عَلَى زيارَتِهَا، فِي كُلِّ مَسَاءٍ بَعْدَ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ، وَكَانَتْ تَصْطَلِحُ مَعَهَا ابْنُهَا عَبْدُ اللَّهِ ذَا الْأَعْوَامِ الثَّمَانِيَةَ لِيَلْعَبَ مَعَ وَوَلَدِي حَالَتِهِ سَلِيمَةً الَّتِي تَكْبُرُهُ بِأَرْبَعَةِ أَعْوَامٍ، رَيْنَمَا تَذْهَبُ الْأَخْتَانُ إِلَى بَيْتِ عَمَّتِهِمَا عَوْشَةَ؛ حَيْثُ يَتَسَامَرُ الثَّلَاثُ حَتَّى بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ، ثُمَّ تَعُودَانِ لِتُحْرَجِرَ أُمَّ عَبْدِ اللَّهِ وَوَلَدَهَا وَهُوَ فِي حَالَةٍ أَقْرَبَ إِلَى النَّوْمِ مِنْهَا إِلَى الْبِقَظَةِ. هَكَذَا كَانَتْ تَمْضِي أُمْسِيَاتُ عَبْدِ اللَّهِ الصَّغِيرِ، كَمَا كَانَ يُنَادِيهِ ابْنُ زَاهِرٍ، عَدَا الْأُمْسِيَّاتِ الْقَلِيلَةَ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا وَالِدُهُ قَدْ عَادَ مِنَ السَّفَرِ، فَهُوَ يَأْتِي وَحْدَهُ إِلَى بَيْتِ حَالَتِهِ مِيرَةَ، يَقْضِي الْأَطْفَالَ لِيَلْتَهُمْ يَلْعَبُونَ مَلِكٌ أَوْ وَزِيرٌ بِأَنْ يَفْذِفَ أَحَدُهُمْ عُلْبَةً كَبِيرَةً فِي الْهَوَاءِ، فَإِنْ سَقَطَتْ عَلَى رَأْسِهَا كَانَ الْقَازِفُ مَلِكًا، فَيَحْكُمُ عَلَيْهِ الْمَلِكُ بِالضَّرْبِ، وَيَقُومُ الْوَزِيرُ بِتَنْفِيذِ الْعُقُوبَةِ. تَدُورُ الْعُلْبَةُ عَلَى الثَّلَاثَةِ فَيَنْتَقِلُونَ بِسَاطِطٍ شَدِيدَةٍ مِنْ مَلِكٍ إِلَى وَزِيرٍ إِلَى لِيص. - تَهْدُهُمْ - أَتَمَنَى لَكُمْ نَوْمًا هَانًا. بِسَلَامٍ أَفْتَرَبَتِ الشَّمْسُ مِنَ الْبَحْرِ تَاهَبَتْ مِيرَةَ لِإِنْجَازِ أَعْمَالِهَا كَعَادَةِ أَهْلِ الْبَلَدِ، وَقَبْلَ الرَّحِيلِ إِلَى مَنَازِلِ الصَّيْفِ. لِتَفْتَرِشَ الْحَصِيرَ فِي صَحْنِ الْبَيْتِ، وَتَرْتَبَ عَلَى أَحَدِ أَطْرَافِهِ طَيَّاتٍ فِرَاشِ النَّوْمِ، لِذَلِكَ. وَبِالْقُرْبِ مِنْهُ تَعْرِزُ عُلْبَةُ الصَّفِيحِ فِي الرَّمْلِ، وَهُوَ يُهْمُهُمْ سَاصِنُ وَاحِدَةٍ مِثْلَهَا بِهِذِهِ الْجِبَالِ، قَدْ وَاصَطَدْنَا بَعْضًا مِنَ السَّمَكِ. - اتَّفَقَتْ مَعَ يَوْسُفَ عَلَى ذَلِكَ، يَهَيِّمُ فِي الطَّرْفَاتِ، يَقُولُ كَلَامًا غَيْرَ مَفْهُومٍ، - نَحْنُ نَفْهَمُهُ - . وَظَلَّ يُتَابِعُ مَا بَدَأَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، كَانَ يَتَأَمَّلُ عَوْدَةَ الْوَالِدِ مِنَ السَّفَرِ، وَكَانَ مُبَارَكٌ قَدْ رَافَقَ أُخْتَهُ لِعِيَادَةِ صَدِيقَتِهَا هُدَايَةَ، غَادَرَتْ الْمَرَاتَانَ إِلَى عَمَّتِهِمَا، تُطَرِّزُ نَفْسَهَا بِنُجُومٍ فَضِيَّةٍ، وَهِيَ تَلْحَفُ الْأَرْضَ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ، وَقَدْ خَضَعَ (الْفَرِيحُ) لِصِمْتِ مُتَعَبٍ، تَغَلَّبَ عَلَيْهِ حِوَارُ الرَّجُلِ وَالطِّفْلِ. وَيَصْدُرُ مِنْ عَادَاتِ ابْنِ زَاهِرٍ عِنْدَمَا يَسْرَحُ بِفِكْرِهِ، صَوْتًا يُشْبِهُ زَهْرَقَةَ الْعَصَافِيرِ. تَعَلَّمَهُ مِنْ أَحَدِهِمْ فِي الْبَحْرَيْنِ: «الْمَجْدُ لِلْفُقَرَاءِ». وَاسْتَمَرَ يُصْدِرُ زَهْرَقَةَ الْعَصَافِيرِ وَهُوَ يَشْفِطُ مَا تَبَقِيَ مِنْ سَمَكِ الْعِشَاءِ بَيْنَ أَسْنَانِهِ، فَعَلَّ ذَلِكَ بِسَبَبِ الْحَرِّ وَظَلَّ الصَّغِيرُ يُصْغِي لِتُعَايِ الْمَاعِزِ وَالْخِرْفَانَ فِي طَرْفِ الْحَوْشِ. أَرَادَ أَنْ يَنْسَى، لَمْ يَكْتَرِثِ الصَّبِيُّ لِمَا حَدَّثَ، وَظَلَّ يُتَابِعُ ابْنَ زَاهِرٍ فِي صِمْتِ عَمِيقٍ، وَقَدْ أَسْنَدَ ذَقْنَهُ الصَّغِيرُ إِلَى رُكْبَتِهِ وَكَأَنَّهُ أَسْلَمَ نَفْسَهُ لِلتَّخِيلَاتِ. أَخَذَتْ النِّشْوَةَ ابْنَ زَاهِرٍ، فَانْقَلَبَ مُنْكَبًا عَلَى بَطْنِهِ، أَوْ نَائِمًا عَلَى جَنْبِهِ، رَافِعًا رَأْسَهُ عَلَى رَاحَتِهِ، حَتَّى أَخَذَتْهُ سِنَّةٌ مِنَ النَّوْمِ. وَتَذَرَعُ الصَّغِيرُ بِالصَّبْرِ، وَقَدْ اِكْتَفَى بِأَنْ يَنْظُرَ إِلَى النَّائِمِ، كَانَ كُلُّ شَيْءٍ فِيهَا كَمَا كَانَ إِلَى أَنْ قَفَزَ خَادِمٌ فَجَاءَهُ، وَسَأَلَ الصَّغِيرَ الْوَاحِمَ: « أَلَمْ يَأْتِيَا بَعْدُ! رَدَّ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بِتَنَاقُلٍ: لَيْسَ بَعْدُ يَا أَبْتَاهُ عَاوَدَتْهُ نَوْبَةُ الزَّهْرَقَةِ، وَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ سَأَلَ عَبْدَ اللَّهِ مُشِيرًا بِيَدِهِ إِلَى الْمِدْيَاعِ أَلَمْ تَنْتَهَ هَذِهِ (اللِّغَايَةُ) وَرَدَّ الصَّغِيرُ فِي شِبْهِهِ لَا تَخْلُصُ بِسُرْعَةٍ. لَا تَعْرِفُ شَيْئًا». - كَانَتْ غَلَطَةٌ مِنَ الصَّغِيرِ لَا يَعْرِفُ كَيْفَ فَلَنْتَ مِنْهُ فَصَرَخَ ابْنُ زَاهِرٍ فِي وَجْهِهِ: «مَا تَقُولُ يَا جَاهِلٌ؟». اعْتَدَلَ الرَّجُلُ فِي جَلِيسَتِهِ، وَأَخَذَ نَفْسًا عَمِيقًا إِلَى أَنْ هَدَاتُ حَالَتُهُ وَنَسِيَ، فَأَخَذَ يَتَلَفَّتُ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الْيَسَارِ، ضَحِكَ الرَّجُلُ وَقَالَ: «أَعْطَيْتَنِي الْيَحْلَةَ لِأَشْرَبَ. لَمْ يُحَاوِلِ الصَّغِيرُ. «هَهُ. قُلْ أَجِيرٌ عِنْدَ حُسَيْنٍ فِي بَوْمِهِ الْمَبْنِيِّ عَلَى السُّحْتِ. تَرَكَتَنِي الْكَلْبُ أَكَابِدُ الْحُزْنَ بَعْدَ أَنْ غَمَرْتَنِي بِالْيَدْيُونِ». صَاحَتْ أُمَّ كَلْثُومٍ فِي غَفْوَةِ الْكَلَامِ أَعْطَيْتَنِي حُرَيْتِي أَطْلُقُ يَدِي. لَكِنَّهُ لَيْسَ لَيْسَ كَوَجَعِ الدَّاءِ، إِنَّهُ أَشَدُّ». بِالطَّبِيعِ لَمْ يَفْهَمِ الصَّغِيرُ، لَكِنَّهُ أَحْسَّ بِوَحْزَاتٍ مِنَ الْأَلَمِ وَظَلَّ الْإِثْنَانِ فِي صِمْتٍ وَخُشُوعٍ حَتَّى أَنْهَى اللَّغَايَةَ أَغْنَيْتَهَا! وَقَالَ الْمُدْبِعُ: تُصْبِحُونَ عَلَى خَيْرٍ»، فَتَأَوَّهَ ابْنُ زَاهِرٍ وَقَالَ: «أَهْ مِنْ الْقَيْدِ أَيُّهَا الرَّجَالُ»، وَتَضَارَبَتِ الْإِذَاعَاتُ، مَدَّ حَادِمٌ يَدَهُ فَاسْكَنْتِ الْخَشْخَشَةَ، مَا يَدْرِي اقْتَرَبَ الطِّفْلُ. فَأَجَابَ الطِّفْلُ «أَسْمَعُ عَنْهُ، مَا الظُّلْمُ يَا أَبْت؟»، فَقَالَ الرَّجُلُ وَهُوَ يُحَاوِلُ أَنْ يُخَفِّفَ مِنْ تَجَاعِيدِ وَجْهِهِ: «الظُّلْمُ هُوَ أَنْ يَوْجَدَ فِينَا وَاحِدًا مِثْلَ حُسَيْنٍ، هُوَ يَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ وَنَحْنُ لَا نَمْلِكُ مَا نَسُدُّ بِهِ الرَّمْقَ. وَأَرْدَفَ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى الصَّبِيِّ بِسَبَابَتِهِ: اسْمِعْ مِنِّي يَا وَلَدِي هَا هُوَ أَبُوكَ يَدُورُ كَالثَّوْرِ الْمَرْبُوطِ فِي (الْمَنْبُورِ) مِنْ الْهِنْدِ إِلَى إِفْرِيْقِيَا إِلَى الْمَمْلُكَةِ، يَصُبُّ الْخَيْرَ فِي جُعْبَةِ حُسَيْنٍ وَيَزِدَادُ أَبُوكَ فَقْرًا عَلَى فَقْرِهِ، وَدِينًا عَلَى دِينِهِ وَعِنْدَمَا يَمَلُّ مِنْهُ، سَيَقْذِفُ بِهِ فِي الْبَحْرِ، وَلَكِنْ لَا تَكُنْ ثَوْرًا يَدُورُ لِصَالِحِ أَحَدٍ فَالْقِيرَانُ يَجِبُ أَنْ تَتَّحِدَ لِصَالِحِهَا الْمُشْتَرَكِ». كَانَتْ الثَّوَانِي تَحِيكُ حَبَائِلَهَا، فَهَا هُوَ الثَّوْرُ الْمَجْدُورُ يَنْفَجِرُ كَالْجَمِّ، أَحْسَّ بِدَوَارٍ شَدِيدٍ. مَادَتْ بِهِ الْأَرْضُ. سَقَطَتِ السَّمَاءُ بِفُضِيَّاتِهَا عَلَى الْأَرْضِ. ارْتَفَعَ تَعَاءُ الْجِدَاءِ يَدُقُّ فِي رَأْسِهِ الْمَعْطُوبِ كَنَاقُوسٍ ضَحَمَ تَصَدَّعَ رَأْسَهُ، صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «آخُ الصُّدَاعِ. وَلَمْ يَحْضُرْ حُسَيْنٌ صَاحِبُ الْيَوْمِ